مَناهِجُ العُلمَاء المسلمين في البَحْث

من خلال المخطوطات

د . أيمن فؤاد سيد

تتَّصل المطالعة العلمية اتصالًا وثيقًا بالكتابة والتدوين، سواء في شكل شروح أو تعليقات هامشية أو نقول لفقرات مُطَوَّلة . فالعالم والمؤرخ والفليسوف والجغرافي واللغوي، يقرأ كل منهم وهو يدون ملاحظاته لاستخلاص معلومات وأفكار بغرض إنتاج مؤلفات جديدة . وعلى ذلك فإن طرق عمل العلماء المسلمين وكيفية استخدامهم للمكتبات العامة والأرشيفات والمصادر المكتوبة واستفادتهم منها ، وكيفية نقدهم للنصوص وإثباتهم للاقتباسات وتحققهم من صحة المعلومات المدونة ، يتطلَّب منّا أن نتعرَّف على المناهج والأساليب التي كانت تُتَّبع لهذا الغرض .

تفاوت أقدار النُّسخ

عرف العلماء المسلمون منذ بدايات التدوين تفاوت أقدار النُّسخ المختلفة للكتب العلمية ، وقدَّروا أهمية هذه النسخ وفْقًا لمعايير ما زالت هي المعايير التي يرجع إليها اليوم العلماء المحققون عند نَقْد النصوص القديمة وَنَشْرها . وتتراوح هذه المعايير بين : قِدمُ النسخة وصحتَّها أو مقابلتها بغيرها .

والقِدَمُ يعني أن تكون النُّسخَةُ أصلًا قد كتبها المؤلف بخطه ، أو عليها خطه ، أو قُرأت عليه ، أو أن تكون قد طالعها بعض العلماء وقوبلت على نسخ معتبرة ؛ كما أن بعض النُّسخ تستمد قيمتها من كونها قد كتبها بخطه عالمٌ شهيرٌ ، أو تملَّكها أحدُ العلماء ، أو تداولها أكثر من عالم

ووُجدت عليها سماعاتٌ أو قراءاتٌ أو إجازاتٌ تفيد ذلك ، وفي كل الأحوال فقد كان قِدَمُ النُّسْخة نوعًا من الضَّمان لصحتها واعتمادها[١] .

وعلى ذلك فإن العلماء القدماء كانوا دائمًا ما يشيرون إلى اقتنائهم أو اطلاعهم على كثير من المؤلفات التي بخطوط مؤلفيها ، أو طالعها واستفاد منها علماء مشهودٌ لهم ، وقد سمى عبد القادر البغدادي أمثال هذه النُّسَخ فيما رَجَعَ إليه « نُسَخًا صحيحة مقروءة وعليها خط العلماء »[٢] . ووصل إلينا بعض هذه النُّسَخ شاهدًا على عناية المؤلفين والعلماء المسلمين وتقديرهم لأمثال هذه النسخ ، وكثيرًا ما كانوا يذكرون - إذا لم تكن النسخة في حوزتهم - الخزانة التي اطَّلعوا فيها عليها ، خاصة إذا كانت المكتبة وَقفًا يتعذَّر بيع الكتب التي فيها أو نقلها ، وعليه لم يدرج علماء المسلمين الأوائل على ذكر أماكن المخطوطات في تصانيفهم ، ولكن أصبح واسع الانتشار في عهد متأخِّر .

وقد أفاد العلماء المتقدمون من هذه النُّسَخ ، إضافة إلى ضبطها وتحريرها ، معلومات كثيرة عن تاريخ تأليفها أو تواريخ وفيات مؤلفيها من خلال تاريخ الفراغ من كتابة النسخة ، الذي يطلق عليه « حَرْد المتن » أو الـ Colophon، وكذلك بما عليها من إجازات وسماعات وقراءات وتقييدات .

ويعد كتاب « الفهرست » أو « الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم » ، لمحمد بن إسحاق النَّديم ، المعروف بابن أبي يعقوب الورَّاق ، المصدر الرئيسى لمعرفة أخبار الأدب والعلم في القرون الأربعة الأولى للهجرة ، والذي بدأ في تأليفه سنة ٣٧٧هـ /٩٨٧م ،

(١) أيمن فؤاد سيد : الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧م، ٩٥.

(٢) البغدادي : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، القاهرة ١٩٧٩- ١٩٨٣، ١٤٣:٥.

وهو يولي اهتمامًا خاصًّا إلى النُّسَخ (المخطوطات) التي وَجَدَهَا بخطوط مؤلفيها ، وكذلك إلى المكتبات الشخصية والنسخ المتميزة الموجودة بها .

وحرص وراقٌ عاش بعد ابن النَّديم بأكثر من قرنين ونصف القرن ، هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحَمَوي ، المتوفي سنة ٦٢٦هـ /١٢٢٩م، على وصف الكثير من النُّسَخ التي وَقَعَتْ له أو اطَّلَع عليها بخطوط مؤلفيها أو كتبها علماء أو عليها خطوط العلماء مع ذكر ما عليها من سماعات وقراءات وإجازات .

وامتلك معاصره الوزير الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القِفْطِي مكتبةً ضخمة قَدَّر قيمتها خليل بن أيْبَك الصَّفَدي بخمسين ألف دينار[١] ، لذلك فإنه يعتزّ طوال صفحات كتابه « إنباه الرواه » بالإشارة إلى ما امتلكه من نُسَخٍ بخطوط مؤلفيها أو بخطوط العلماء . وأتاح له امتلاكه لهذا الكم الكبيرِ من الكتب المعتبرة أن يَجْمَع مقدارًا وافرًا من التعليقات والتقييدات والفوائد التي تَعَوَّد العلماء أن يضيفوها على ظهور الكتب ، كان موضوع كتابه « نُهْزَة الخاطر وَنُزْهَةَ الناظر في أحسن ما نُقِل من على ظهور الكتب »[٢] ، وللأسف فقد فُقِدَ هذا الكتاب اليوم .

وقد يطول بنا المقام إذا حاولنا أن نستقصي الطُّرق التي اتبعها هؤلاء العلماء في ذكر هذه النُّسَخ التي بخطوط مؤلفيها أو كتبها العلماء ؛ فمن ذلك ما قاله ابن النديم عند ذكر كتاب « الخراج الكبير » لأحمد بن محمد بن سليمان بن بَشَّار الكاتب : « رأيت المسَوَّدَة بخطه نحو ألف ورقة » [٣] ، أو ما قاله عند ذكر كتاب « الوزراء » للجَهْشياري : « قرأت

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ٣٣٨:٢٢.
(٢) ياقوت : معجم الأدباء ١٨٧:١٥.
(٣) ابن النديم : الفهرست ١٥٠.

بخط أبي عبد الله محمد بن عَبْدوس الجَهْشَياري في كتاب الوزراء تأليفه »[1] . ونقل من خطوط العلماء وكبار الوراقين بما مثاله : « قرأت بخط أبي العباس ثعلب »[2] أو « المقالة الأولى من كتاب « السماع الطبيعي » لأرسطوطاليس ، بترجمة إبراهيم بن الصلت رأيتها بخط يحيى بن عَدِي »[3] .

وقال ياقوت الحموي ما مثاله « قرأت بخط أبي حَيَّان التوحيدي من كتابه الذي ألفه في تقريظ الجاحظ »[4] ، أو « كتاب العروض » لعمر بن جعفر بن محمد الزعفراني في خمس مجلدات ضخمة ، رأيتها بخطه في وقف جامع حلب[5] ، أو كتاب « تنقيح البلاغة » لأبي سعد العميدي قال : « رأيته بدمشق في خزانة الملك المعظم - خَلَّد الله دولته - وعليه خطه ، وقد قرئ عليه في شعبان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة »[6] .

ويوضح ما ذكره القفطي عند ذكره نسخة من كتاب « تهذيب اللغة » للأزهري بخطه أهمية أمثال هذه النُّسخ ، ثم كيفية استفادة العلماء بها ، يقول : إنه وجد على المجلد العشرين من هذه النسخة بخط الإِمام أبي القاسم محمود بن عمر الزَّمَخْشَري ما صورته :

« ظفرت من هذه النسخة التي هي نسيج وحدها لكونها بخط المصنف ، وسلامة لفظها من التحريف والزلَّل الذي لا تكاد تبرأ منه يد

(١) ابن النديم : الفهرست : ١٥.

(٢) ابن النديم : الفهرست ٥٧.

(٣) نفسه ٣١١.

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١٦:٧٨، ٩٥.

(٥) نفسه ١٦:٥٩؛ الصفدي : الوافي ٢٢:٤٤٥.

(٦) نفسه ١٧:٢١٢.

كاتب في كتاب خفيف الحجم ... فضلًا عن عشرين مجلدة - بضالتي المنشودة ، فأكببت عليها إكباب الحريص وقلبتها بالمطالعة وعلقت عندي ما فيها من الأحاديث التي خلت منها مصنفات أبي عبيدة والقتبي والخطابي ، والأمثال التي لم تكن في كتابي الذي سميته بـ « المستقصى في أمثال العرب » ، وكلمات كثيرة من الغريب المشكل ، وسألت الله تنوير حفرة المصنف وإنزاله في ظلال الفردوس بفضله ورأفته . وكتب محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي بمدينة مَرْو بخط يده ، حامدًا لله ومصليًا على خير خلقه محمد وآله ، بتاريخ رجب الواقع سنة ثلاث وخمسمائة » .

وأضاف القفطي أنه كان على النسخة بخط المؤلف ما مثاله : « وكتب محمد بن الأزهر بيده »[1] .

دليلٌ أخير على مدى اهتمام العلماء باقتناء الكتب التي بخطوط مصنفيها ما رواه ابن حجر العَسْقلاني (ت ٨٥٢ هـ) عن قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة ، المتوفىٰ سنة ٧٩٠هـ /١٣٨٨م ، من أنه : « خَلَّف من الكتب النفيسة ما يعز اجتماع مثله لأنه كان مغرمًا بها ، فكان يشتري النسخة من الكتاب التي إليها المنتهى في الحسن ، ثم يقع له ذلك الكتاب بخط مصنفه فيشتريه فلا يترك الأولى ، إلى أن اقتنى بخطوط المُصَنِّفين ما لا يُعَبَّر عنه كثرة »[2] .

المكتبات العامة

وكانت المكتبات العامة ودور العلم الغنية بالنُّسخ الأصلية منتشرة في كبريات المدن الإِسلامية ، مثل : « بيت الحكمة » في بغداد ، ومكتبة « دار

(١) القفطي : إنباه الرواه ٤:١٧٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر ١:٣٥٥.

العلم » بالقاهرة الفاطمية ، ومكتبات المدارس النِّظامية في العراق وفارس ، ومكتبات الخلفاء الأمويين بقرطبة في الأندلس وغيرها كثير .

وقد زار ياقوت الحموي مدينة مَرْو في مطلع القرن السابع الهجري ، وأقام بها ثلاثة أعوام (٦١٣- ٦١٦هـ) ، ووصف ما بها من خزائن الكتب التي اضطر إلى مفارقتها عندما بدأ المغول يصلون إلى مشارفها ، يقول عن كتبها : « وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رَهْن تكون قيمتها مائتى دينار فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ... وأكثر فوائد هذا الكتاب [يقصد معجم البلدان] وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن »[١] .

ولما كان ياقوت الحموي ورَّاقًا يشتغل ، إلى جانب التأليف والكتابة ، بنَسْخ الكتب والتجارة فيها ، فقد وَقَع له وهو بمَرْو نسخة من كتاب « تمام الفصيح » لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ /١٠٠٤م ، بخطه وقد كتب في آخرها : « وكتب أحمد بن فارس بن زكرياء بخطه في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة بالمحمدية »[٢] . ونقل ياقوت نسخة عنها في سنة ٦١٦هـ وَصَلَت إلينا شاهدةً على صحة ما ذكره ياقوت ، وهي محفوظة الآن في مكتبة شستربتي بدبلن برقم ٣٩٩٩[٣] . وقد استدلّ ياقوت من تاريخ هذه النسخة بتأخُّر وفاة ابن فارس على هذه السنة .

ويقول الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا واصفًا المكتبة التي أنشأها الأمير نوح بن منصور الساماني في بُخَارى ، إنه طالع فيها فهرست كتب

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤:٥٠٩- ٥١٠.

(٢) نفسه٤:٤٣٠- ٤٣١، ومعجم الأدباء ٤:٨٢.

(3) Arberry, A.J., A Volume in the Autograph of Yaqut the Geographer (574- 626/ 1179- 1229), London 1951.

38a

بهم أي خذ بهم يمينًا وشمالًا ولا يقال تيامن وتقول هذا
قريبي ولا يقال قرابتي لكن بيني وبينه قرابة وهذا
أمر سماوي ولا يقال سمائي وهو آخري ولست بدنيوي
ولا يقال دنياوي وتقول تهجدت هجودًا إذا نمت
وتهجدت إذا سهرت وتقول جبت القميص قورت
جيبه وجببته جعلت له جيبًا وطهرت المرأة
إذا رأت الطهر وتطهرت إذا اغتسلت وتقول أبلت
الشيء فأنقته وزاولته عالجته ويقال قتل الرجل
فإن كان ذلك من جن أو عشق قيل اقتتل قال ذو الرمة
إذا ما امرؤ حاولن أن يقتتلنه بلا إحنة بين النفوس ولا ذحل
وتقول رجل خصاف أي كثير اللحم فإن كان قليل اللحم
فهو خفيف ورجل عريان وفرس عري وتقول كشفت
عن رأسي وسفرت عن وجهي وحسرت عن ذراعي
قال أحمد بن فارس هذا آخر ما أردنا إثباته في هذا الباب
ولم أعلم أن أبا العباس قصر عنه لكن المشيخة آثروا
الاختصار وجهًا أقول إن جميع ما ذكرته من
علم أبي العباس جزاه الله عنا خيرًا فأما الفرق فقد
كنت ألفت فيه على الخصال له كتابًا جامعًا
وهو مشهور وبالله التوفيق وصلى الله على محمد وآله أجمعين
وكتب أحمد بن فارس بن زكريا بخطه في شهر رمضان
سنة ثلاث وتسعين وثلثمئة بالمحمدية
قال ناسخ هذه النسخة هذا جميعه صورة خط الإمام أبي الحسين

نسخة كتاب «تمام الفصيح» لأحمد بن فارس بخط ياقوت الحموي

38b ابن البرسي رحمه الله فأما أنا فإني فرغت من نسخ هذه النسخة
يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة
بمرو الشاهجان حامداً الله ومصلياً على نبيه المصطفى محمد
وآله وصحبه الكرام وكتب ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي .

الأوائل ، وطلب ما احتاج إليه ، وأنه رأى بها من الكتب ما لم يقع إليه اسمه ، وإنه قرأ تلك الكتب وظفر بفوائدها[1] .

وذكر حاجي خليفة أن الشيخ الرئيس أبا عليٍّ بنَ سينا (ت٤٢٨هـ) أخذ الحكمة من كتب هذه المكتبة التي وجد فيها كتاب « التعليم الثاني » للفارابي ، ولخَّص منه كتاب « الشفاء » ، وأضاف أن هذه الخزانة أصابتها آفة واحترقت كتبها واتُّهم ابن سينا بأنه أخذ منها مصنفاته ثم أحرقها حتى لا يطَّلع عليها أحدٌ[2] !

وذكر ابن أبي أُصَيْبِعَة أن أبا المُظفَّر نصر بن محمود بن المُقَرَّف كانت له مكتبةٌ وأنه كان يمضي معظم أوقاته بها مشتغلًا في الكتب وفي القراءات والنسخ ، وأن جميع كتبه لا يوجد شيء منها إلَّا وقد كتب على ظهره مُلَحا ونوادر مما يتعلَّق بالعلم الذي صُنِّف ذلك الكتاب فيه . وأضاف أنه رأى كتبًا كثيرة من كتب الطب وغيرها من الكتب الحكمية التي كانت لأبي المُظفَّر وعليها اسمه وما منها شيء إلا وعليه تعاليق مستحسنة وفوائد متفرقة مما يجانس ذلك الكتاب[3] .

وذكر السيد محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) أنه وَقَفَ على نسخة من كتاب « العُبَاب الزاخر » ، وأخرى من « التكملة على الصِّحاح » ، وكلاهما للصَّغاني – قال : « ظفرت بهما في خزانة الأمير صَرْغَتْمش »[4] . وقد وَصَلت إلينا هذه النسخة من « التكملة والذيل والصِّلَة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية » ، وهي نسخة كتبت سنة ٦٤٢هـ في حياة

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ١٢:٣٩٤.

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون (ليبستج ١٨٣٧- ١٨٥٨)، ٣:٩٩.

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، القاهرة ١٨٨٢، ٢:١٠٨.

(٤) الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، مصر ١٣٠٦- ١٣٠٧هـ ، ١:٤

المصنِّف ، آلت إلى دار الكتب المصرية من خزانة الأمير صَرْغَتْمش في نهاية القرن التاسع عشر ، وهي محفوظة بها برقم ٣ لغة ، وفي آخر كل جزء من أجزائها الستة عبارة مُوَقَّع عليها باسم السيد محمد مرتضى الزبيدي : « أفرغه مطالعة واستنباطًا لغرائبه الفقير إلى الله تعالى محمد مرتضى الحسيني عفا الله عنه » ، أو : « أفرغه مع استخراج غرائبه مستعينًا بها على شرحه على القاموس العبد الفقير محمد مرتضى الحسيني الزبيدي عفا الله عنه بمنِّه وكرمه ، تحريرًا في غرة محرم سنة ١١٩٠ أرانا الله خيرها وكفانا شرها آمين » .

وجاء في آخر النسخة « الحمد لله وحده، بلغ مقابلة هذا الكتاب ومعارضته على شرحي على القاموس من أوله إلى آخره في مجالس ، آخرها ثاني ربيع الأول سنة ١١٩١، فصحّ إن شاء الله بصحته، وكتب أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني نزيل مصر ، غفر له بمنه وكرمه ، حامدًا لله ومصليًا على رسوله وآله، مستغفرًا » .

البحث عن الكتب

كان العلماء يبذلون جهدًا كبيرًا لاقتناء الكتب المهمة أو على الأقل الاطلاع عليها ، وكان للوراقين دورٌ كبيرٌ في توفير هذه الكتب لهؤلاء العلماء عن طريق البحث عنها أو نَسْخ نُسَخ منها .

وكان لكل عالم أو مؤلّف مكتبة لاستخدامه الشخصي تتفاوت قيمة كتبها تبعًا لأهمية العالم وقيمته العلمية . فيذكر ابن النديم أن مكتبة ابن حاجب النعمان : « لم تشاهد خزانة للكتب أحسن من خزانته لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين وديوان فرد، بخطوط العلماء المنسوبة »[١] ، وأن محمد بن الحسين ، المعروف بابن أبي بَعْرة – والذي كان بمدينة

---

(١) ابن النديم : الفهرست ١٤٩.

الحدِّيثة بالعراق - « كان جماعًا للكتب له خزانة لم أر لأحد مثلها كثرة تحتوي على قطعة من الكتب الغريبة في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة »[1] . وأن أبا محمد الفتح بن خاقان « كانت له خزانة كتب جمعها له علي بن يحيى المنجم لم يُر أعظم منها كثرة وحسنًا »[2] . وكان من جملة ما اعتذر به الوزير الصاحب إسماعيل بن عبَّاد ، المتوفى سنة ٣٨٥هـ /٩٩٥م إلى الملك نوح بن منصور الساماني صاحب خراسان ، عندما أرسل إليه سرًّا يستدعيه إلى حضرته ويرغبه في خدمته أن عنده « من كتب العلم خاصةً ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر »[3] . وجمع الوزير الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم القفطي ، المتوفى سنة ٦٤٦هـ /١٢٤٨م مكتبة ضخمة قُصد بها من الآفاق وعاونه ياقوت الحموي الورّاق في جمع جزء كبير منها ووصفها بأنه لم ير مع اشتغاله بالكتب وجمعه لها وتجارته فيها أشد اهتمامًا منه بها ولا أكثر حرصًا منه على اقتنائها ، وحصل له منها ما لم يحصل لأحد وكان مقيمًا بحلب[4] .

كانت مكتبة العالم الخاصة أعز ما يملكه ، وكان فقدها كارثة تترك في نفسه ألمًا شديدًا ، فيصف ياقوت الحموي الحسن بن محمد بن حمدون المتوفى سنة ٦٠٨هـ /١٢١١م بأنه كان من المحبين للكتب واقتنائها والمبالغين في تحصيلها وشرائها وأنه حصَّل له من أصولها المتقنة وأمهاتها ما لم يحصله لغيره ، ثم تبدلت به الأحوال واضطر لبيعها . قال ياقوت : « فرأيته يخرجها ويبيعها وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبائه الأوداء . فقلت له : هون عليك - أدام الله أيامك - فإن الدهر ذو دول ، وقد يسعف الزمان ويساعد وترجع دولة العز وتعاود فتستخلف ما

(١) نفسه : ٤٦.
(٢) نفسه : ١٣٠.
(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٦:٢٥٩.
(٤) نفسه ٩: ١٨٥- ١٨٨.

هو أحسن منها وأجود . فقال : حسبك يا بني : هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها ، وهب أن المال يتيسر والأجل يتأخَّر، وهيهات ...»[1] .

وكان البحث عن الكتب النادرة من أكثر ما يرهق العلماء؛ يقول ياقوت - وهو الوراق الذي يتجر في الكتب - في مقدمته لـ « معجم البلدان » ، وهو يعدد المصادر الجغرافية ، أن لأبي عبيد البكري الأندلسي كتابًا سماه « معجم ما استعجم من أسماء البقاع »، لم أره بعد البحث عنه والتطلب له »[2] .

وقضى البيروني أكثر من أربعين سنة وهو يفتش عبثًا عن نسخة من كتاب ماني « سفر الأسرار » ، إلى أن وُفّق أخيرًا للحصول عليها[3] .

وحاول ابن خَلّكان أن يتحقق من تاريخ وفاة محمد بن فتوح الحميري كما ذكرها ابن الأثير في « مختصر كتاب الأنساب » وراجع أكثر من نسخة فوجدها على نفس الصورة، لأنه تَوَهَّم أن الغلط في نسخته، ولم يتمكن من مراجعة الأصل الذي ألّفه ابن السّمعاني الذي هذا المختصر منه « لأنه لا يوجد في هذه البلاد »[4] .

وكان ابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ - ١٤٣٠م أثناء تأليف كتابه « غاية النهاية في طبقات القراء » يتلَهَّف للوقوف على كتاب « الانتصار في معرفة قُرَّاء المدن والأمصار » ، لأبي العلاء الهَمَذاني أو على شيء منه من

(١) نفسه ٩:١٨٥- ١٨٨.

(٢) ياقوت : معجم البلدان ١:٧-٨.

(٣) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين ٥١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤ : ٢٨٣ .

زمن كثير، فما حَصَّل منه ولا ورقة ولا رأى من ذكر أنه رآه، وأرجع فقده إلى موجة التخريب التي أعقبت اجتياح المغول[1] .

ويذكر الجبرتي في مطلع القرن التاسع عشر أن المقريزي «نقل في مؤلفاته أسماء تواريخ لم نسمع بأسمائها في غير كتبه مثل تاريخ ابن أبي طَيّ، والمُسَبّحي وابن المأمون وابن زولاق والقُضاعي»[2] .

الجُزازات

وكان العلماء (المؤلفون) المسلمون أثناء حضورهم لمجالس العلماء يُدَوِّنون ملاحظاتهم على «جُزازات» كما كانوا ينسخون فيها الاقتباسات عن الكتب التي كانوا يطالعونها بغرض الاستفادة منها والإحالة عليها، وكانت هذه «الجُزازات» تُكَوِّن فيما بعد المادة الأولية في تآليفهم.

فنحن نعرف أن أبا علي القالي البغدادي ألّف كتابه «البارع»، الذي يشتمل على خمسة آلاف ورقة وتوفى قبل أن يبيضه فاستخرج بعد وفاته من الصُّكوك والرِّقاع[3] .

وكتاب «المسائل» وهو المدخل إلى صناعة الطب لحنين بن إسحاق (ت ٢٦٠ هـ) ليس جميعه لـحُنَيْن، بل إن تلميذه حُبَيْشًا الأعْسَم تَمَّمه ولهذا قال ابن أبي صادق في شرحه له: إن حُنَيْنًا جمع معاني هذا الكتاب «في طروس ومُسَوَّدات»، بَيَّض فيها البعض في مدة حياته، ثم إن حُبَيْش بن الحسن تلميذه وابن أخته رَتّب الباقي بعده وزاد فيه من عدة زوائد، وألحقها بما أثبته حنينًا في

(١) ابن الجزري : غاية النهاية ١ : ٢٠٤.

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار (بولاق ١٢٩٧هـ) ١:٦.

(٣) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ١٨٦، القفطي : إنباه الرواه ١:٢٠٦.

دستوره ، ولذلك يوجد هذا الكتاب معنونًا بكتاب المسائل لحنين بزيادات حُبَيْش ابن الأعْسَم[1] .

وذكر البيروني في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي أن كتابه « الجامع الكبير » المعروف بـ « الحاوي » تركه « كتعاليق لم يَتَصَرّف فيها ولم يتمه[2] .

ولم يُبَيِّض الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلَفي ، المتوفى سنة ٥٧٦هـ /١١٨٠م كتابه « معجم السَّفَر » وإنما تركه في جُزازت . ورأى الحافظ شمس الدين السخاوي في نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي نسخة منه في مجلد ، بخط محمد بن عبد العظيم المنذري ، المتوفى سنة ٦٤٤هـ /١٢٤٦م ، قال في أولها : إنه وقع له بخط السِّلفي في جُزازات ، كل ترجمة في جُزازة فبيَّضها ورتبها كما تجيء لا كما يجب[3] . وهو ما يتفق مع ما جاء في فاتحة النسخة المحفوظة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة رقم ١٧٦ حديث ، جاء في فاتحتها ما نصُّه : « وبعد فإن جزازات معجم من السَّفر وقعت بخط الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد الأصبهاني فبيضتها ورتبتها كما تجيء لا كما يجب ...»[4] ؛ لذلك فكثيرًا ما نجد في النسخة الملاحظة التالية : « وقال في ورقة أخرى » أو « ومن ورقة أخرى » أو « وفي رقعة أخرى في ذكره »[5] .

وهذا يدفعنا إلى القول بأن المؤلفات الضخمة مثل « تاريخ بغداد »

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ١ : ١٩٧.

(٢) البيروني : فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي، نشره بول كراوس، باريس ١٩٣٦ ، ٦.

(٣) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ في كتاب روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة صالح أحمد العلي ، بغداد ١٩٦٣، ٥٩٢.

(٤) السلفي : معجم السفر ، تحقيق شير محمد زمان ، إسلام آباد ١٩٨٨م، ١.

(٥) نفسه ٨٤، ٩٨، ١٢٢، ١٢٨، ٢٤٧.

للخطيب البغدادي، أو « تاريخ مدينة دمشق » للحافظ ابن عساكر وغيرها من الكتب ذات المجلدات الكبيرة والمرتبة على حروف المعجم ، يجب أن تكون قد كتبت أولًا في « جزازات » ورتبت في صناديق كبيرة قبل تبييضها في المجلدات التي وصلت إلينا ، أو كتبت في كراريس كل كراسة تتناول موضوعًا معينًا . ومن سوء الحظ فإن هذه الجزازات (البطاقات) لم تصل إلينا ، فيما عدا مسودة كتاب « الخطط » للمقريزي ومسودة كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة ، وسوف أشير إليهما بعد قليل .

كما يبدأ الثعالبي أحد فصول كتابه « فقه اللغة » بقوله : « وجدت في التعليقات التي أخذتها عن أبي بكر الخوارزمي »[١] .

وذكر الباخرزي في ترجمة أبي العلاء المعري في « دمية القصر » أنه رأى ديوان شعره المعروف بـ « سقط الزند » ، ولم يلتقط منه ما يصلح لكتابه ، فاضطر للرجوع إلى « تعليقاته » فعثر بها على ما أنشده به شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني[٢] . ويقول في ترجمته لابن أبي زرعة : إنه وجد في بعض « التعاليق » هذه الفائية منسوبة إليه فنقلها [٣] .

وعندما ذكر ابن خَلِّكان نسب ابن القطاع الصقلي في كتابه « وفيات الأعيان » تشكك فيه ثم قال : « هكذا وجدت هذا النسب بخطي في مسوداتي وما أعلم من أين نقلته »[٤] .

وذكر القرشي (ت٧٧٥هـ) في مقدمة كتابه « الجواهر المضية » أنه منذ

(١) الثعالبي : فقه اللغة ، بيروت ١٨٨٥، ١٠.
(٢) الباخرزي : دمية القصر١:١٨٥.
(٣) نفسه١:١٩٦.
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣:٣٢٣.

طلب العلم متشوق إلى جمع كتاب يذكر فيه طبقات الحنفية، وأن أول من حثه على ذلك الشيخ العلامة قطب الدين عبد الكريم، الذي أمده بتواريخ وتعاليق وفوائد غزيرة(١) .

وذكر ابن الأثير الجزري في مقدمة كتابه « أُسْد الغابة » أنه أراد أن يؤلف كتابًا في أسماء الصحابة وهو في بلده وفي وطنه الموصل ، وعنده كتبه وما يراجعه من أصول سماعاته وما ينقل منه ، ثم اضطر للسفر إلى الشام لزيارة البيت المُقَدّس ، فطلب إليه جماعة من أعيان المحدثين أن يجمع لهم كتابًا فيه أسماء الصحابة فاعتذر لهم بتعَذّر وصوله إلى كتبه وأصوله ، وأنه بعيد الدار عنها ولا يرى النقل إلا منها ، فألحوا في الطلب فشرع في جمعه ، واتفق أن جماعة كانوا قد سمعوا عليه أشياء بالمَوْصل وساروا إلى الشام فنقل منها أحاديث مسندة وغيرها ، ولما عاد إلى الموطن بعد الفراغ من تأليفه وأراد أن يكثر الأسانيد ويُخَرِّج الأحاديث التي في الكتاب بأسانيدها ، رأى أن ذلك عمل متعب سيضطره إلى نقض كل ما جمعه فاضطر فقط إلى نقل ما تدعو الضرورة إليه مما لا يخل بترتيب الكتاب(٢) .

وسأل ابن قَيِّم الجوزية القارئ أن يكون لينًا سمحًا في نقد كتابه « روضة المحبين » لأنه صنفه وهو بعيد عن بيته وعن خزانة كتبه(٣) .

ووصلت إلينا وثيقة من الطبقة الأولى تدلنا على المنهج الذي كان يتبعه القدماء في تأليف كتبهم ، هو « مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » لشيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ /١٤٤٢م. وهذه المسودة محفوظة الآن في

(١) القرشي : الجواهر المضية في تراجم الحنفية ، القاهرة ١٩٨٦، ١:٩-١٠.
(٢) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ١٢٨٠هـ ، ١:٤.
(٣) ابن القيم : روضة المحبين ، دمشق ١٣٤٩هـ ، ١٥.

مكتبة خزينة الملحقة بمتحف طوبقبوسراي باستانبول تحت رقم ١٤٧٢ كتبها المقريزي على الأرجح في الفترة بين سنتي ٨١٨ و٨٢٧هـ .

كتبت المسودة على ورق سبق استخدامه في كتابات أخرى من قبل ، تتخلله بياضات كثيرة تدل على أن المقريزي كان سيعيد النظر فيها ويستكملها من مصادر أخرى . وبها حَذْفٌ وكَشْطٌ وشطب كثير ، وإضافات عديدة ومطولة على هوامش صفحاتها ، وكذلك في طيارات (جزازات) مختلفة الأحجام مضافة بين أوراق الكتاب . وسجل المقريزي على صفحة عنوان الكتاب (الظهرية) ، بخطه فوائد عن المَحْمَل ، وترجمة موجزة لشيخ الإسلام البُلقيني ، وتاريخ وفاة قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية علي بن الأدمي ، وفائدة أخرى عن القُلْزَم وجامعها ، وعن الثياب الشَّطَوِيَّة .

وعلى غلاف الكتاب ما يفيد أنه « من كتب الفقير أبي بكر بن رستم الشِّرْواني » ، وهذا الرجل كانت لديه مكتبة ضخمة فقد صادفت توقيعه على العديد من المخطوطات المحفوظة على الخصوص في مكتبات إستانبول ، وهو من رجال القرن الثاني عشر ، حيث أثبت على أحد المخطوطات أنه امتلكها سنة ١١٣٥هـ[١] .

ومن المسودات الهامة التي وصلت إلينا المُسوَّدة التي أعدها مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة (كاتب جلبي)، المتوفى سنة ١٠٦٧هـ /١٦٥٦م لكتابه الشهير « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » ، وهي محفوظة الآن في مكتبة جار الله أفندي في استانبول ، تحت رقم ١٦١٩. وقد وصلت إلينا كذلك المُبَيَّضَة التي أعدها حاجي خليفة لكتابه والتي لم

(١) نشرت هذه المسودة وقدّمت لها بدراسة عن طرق التأليف عند القدماء من خلال هذه المسودة ، وصدرت عن مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن سنة ١٩٩٥م .

يُبَيِّض منها سوى إلى حرف الدال من الكتاب مادة « دروس » وهي محفوظة الآن في مكتبة روان كشك الملحقة بمتحف طوبقبوسراي باستانبول ، تحت رقم ٢٠٥٩ [١] . توضحان لنا نموذجًا من طريقة التأليف عند العلماء المسلمين .

الفوائد الموجودة على ظهور الكتب

من نماذج الفوائد التي كان يسجلها العلماء على ظهور الكتب ما ذكره ابن النديم من أنه وجد على ظهر جزء بخط عتيق أسماء مفسري كتب أرسطو في المنطق وغيره من الفلسفة[٢] .

وذكر ياقوت الحموي أنه وُجِد كتاب « شرح الكافي في القوافي » ، لأبي الفتح عثمان بن جني بخطه على ظهر نسخة من كتاب « المُحْتَسِب في علل شواذ القراءات » ، هكذا ذكر ناسخه[٣] .

وسجل المقريزي بخطه على نسخة من « الفهرست » لابن النديم انتقى منها فوائد في سنة ٨١٣هـ ترجمة مهمة لابن النديم .

المقابلة والمعارضة

وللتأكد من صحة المعلومات الواردة في النُّسخ المختلفة للكتب كان العلماء يلجأون إلى مقابلة النسخ ومعارضتها ويسجلون الفروق والاختلافات والتصحيحات على هوامش نسخهم .

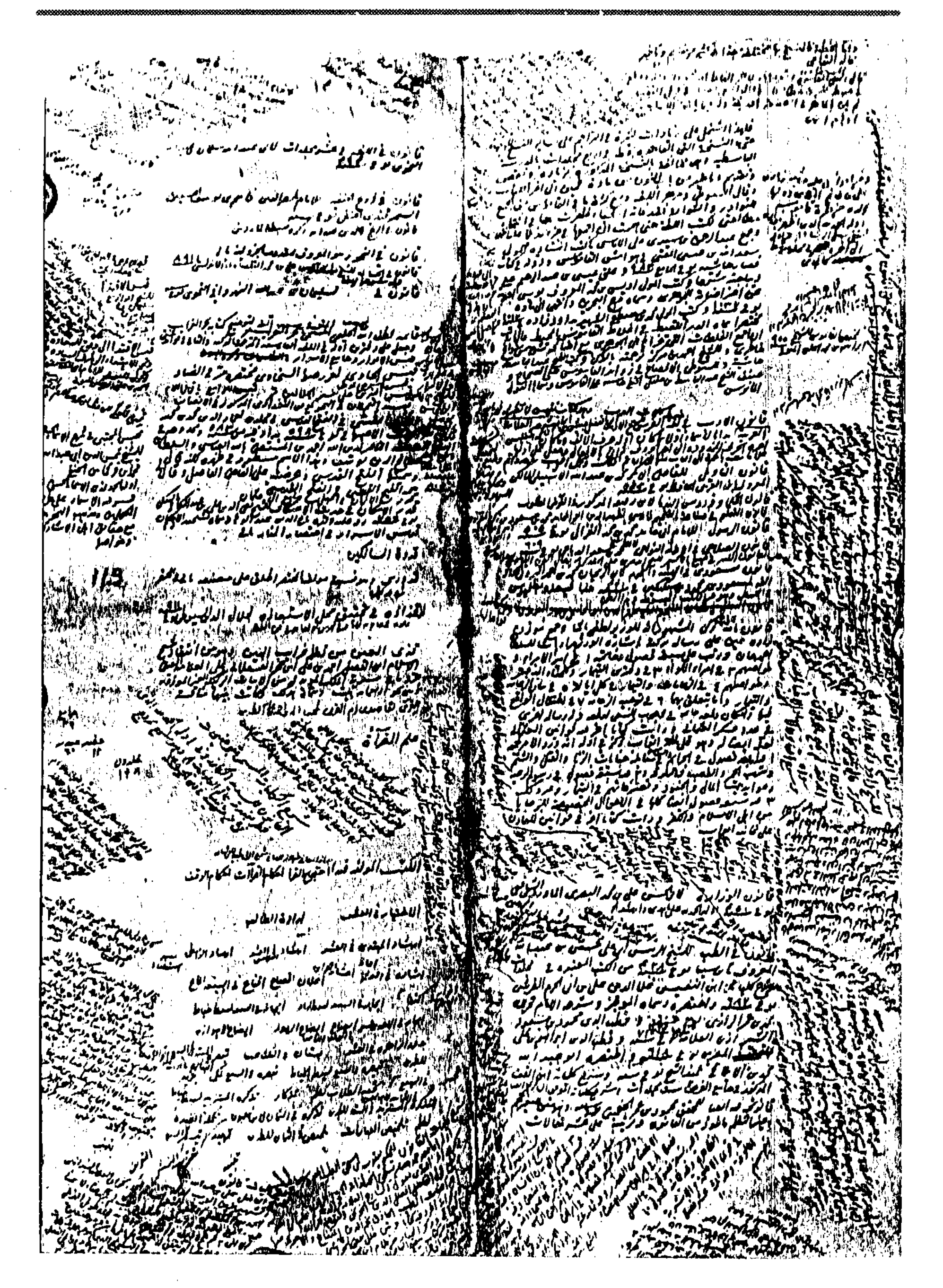
---

(١) انظر: Birnbaum, E., "Katile Chelebi (1609-1657) and olphabetization: a methodological investigation of the autographhs of his kashf al - Zunun and Sullam al Wusul" in Seribes et manuscrits du Moyen- Drieut, Laris 1997, 11.235-63.

(٢) ابن النديم : الفهرست ٣١٥.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ١٢:١٣.

ورقة من مسودة المواعظ والاعتبار للمقريزي



ورقة من مسودة « كشف الظنون » لحاجي خليفة

و« المقابلة » تعني مقابلة النسخة بنسخة أخرى صحيحة أو مُوَثّقة .

أما « المعارضة » فتعني عرض النسخة على شيخ مستخدمًا نسخته الموثقة . مثال ذلك ما ذكره ابن النديم عند حديثه على كتاب « النَّفْس » لأرسطو ، حيث نسب لإِسحاق بن حنين قوله : « نقلت هذا الكتاب إلى العربي من نسخة رديئة ، فلما كان بعد ثلاثين عامًا وجدت نسخة في نهاية الجودة فقابلت بها النقل الأول وهو شرح ثامسطيوس » [١] . وما سجله الحسن بن عبد الله السيرافي على ظهر كتاب « المقتضب » للمُبَرِّد نسخة مكتبة كوبريلي رقم ١٥٠٧: « قرأت هذا الجزء من أوله إلى آخره واصلحت ما فيه وصححته، فما كان فيه من إصلاح وتخريج بغير خط الكتاب فهو بخطي . وكتب الحسن بن عبد الله السيرافي »[٢] .

وما جاء على نسخة كتاب « النجاة » للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا المحفوظة في مكتبة مراد ملّا باستانبول برقم ١٤١٠: « قوبلت المنطقيات من هذه النسخة بخط المستنسخ رحمه الله ، وقوبلت الطبيعيات والإِلهيات بنسخة مقروءة على المؤلف ، وعليها خطه بالإِجازة على هذه الصورة : قرأ عليّ هذا المجموع قراءة فهم ... الصاحب أبو عبيد نفعه الله . وكتبه أبو علي الحسين بن سينا ، وقوبلت النسخة بنسخ عدة وصححت مقابلة وعملا »[٣] .

وعلى نسخة كتاب « الجليس الصالح الكافي » للمعافى بن زكريا النهرواني ، المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث باستانبول ، برقم ٢٣٢١:

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٣١٢.

(٢) أيمن فؤاد سيد : المرجع السابق ٥٠٢.

(٣) رمضان ششن : « أهمية صفحة العنوان (الظهرية) في توصيف المخطوطات » ، دراسة المخطوطات الإِسلامية بين اعتبارات المادة والبشر ، لندن - مؤسسة الفرقان للتراث الإِسلامي ١٩٩٧، ١٨٧- ١٨٨.

« عارضتها بنسختي ، وهي بخط الإِمام الحافظ المتقن شمس الدين أبي الحداد يوسف بن خليل الدمشقي ، وبالنسخة الموجودة ضمن المدرسة المستنصرية ، وصححت بقدر الإِمكان والحمد لله أولًا وآخرًا » .

وعلى نسخة « الوافي بالوفيات » للصفدي ، المحفوظة في مكتبة شهيد علي باشا باستانبول : « بلغ مقابلة من أول هذا الجزء إلى آخره على خط مؤلفه إلا مواقع يسيرة منبهًا عليها في مواضعها ... وكان ذلك في شهر صفر سنة ٨٧٣» . و« الحمد لله بلغ مقابلة حسب الطاقة على نسخة المصنف على يد الفقير إلى الله تعالى محمد الخطيب المصري في مجالس ، آخرها يوم الجمعة المبارك ثاني عشرين ربيع الأول سنة تسع وستين وثمانمائة ، داعيًا لمالكه أطال الله بقاءه ورحم سلفه الكرام آمين ، وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه » .

وأيضًا ما جاء على الجزء الرابع من كتاب « المبسوط » للسَّرَخْسي المحفوظ في دار الكتب المصرية برقم ٤٢٠ فقه حنفي : « قوبل هذا المجلد وهو الرابع من المبسوط لشمس الأئمة السَّرَخْسي رحمه الله مع الشيخ الإِمام العالم زين الدين عثمان بن أبي بكر الحنفي ، بمدرسته الطرخانية بنسخته التي سمعها على الشيخ الإِمام العلامة شيخ الإِسلام جمال الدين الخضيري قدس الله روحه ونَوَّر ضريحه ، وذلك في مجالس آخرها الرابع من ذي القعدة من سنة أحدى وأربعين وستمائة ، وصُحِّح بحسب الإِمكان . قابله صاحبه الفقيه الإِمام العالم قطب الدين أبو الربيع سليمان الحبشي شرفه الله تعالى ...» .

وعلى نسخة « شرح مشكل الصحيحين » لابن الجوزي ، المحفوظة في دار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٣ حديث : « بلغ مقابلة على الأصل الذي سمع على الشيخ الإِمام العالم سيد العلماء والحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي ، المصنف بتاريخ



ظهرية كتاب "المقتضب" للمبرد وعليها خط السيرافى

قال ما مرت علي ليلة منذ سمعت هذا إلا وعندي وصيتي

وفي الحديث التاسع والستين

أن هذا الأمر في قريش يعني به الإمارة

وفي الحديث السبعين نهى عن قتل النساء والصبيان

إنما خص قتل النساء لمعنيين أحدهما أنهن لا يقاتلن

في الأغلب وفي قتل من لا يقاتل نوع جور والثاني أنهن

عند الغلبة يصرن غنيمة للمسلمين وكذلك الصبيان

فقتلهم تفريط في المال فأما إن قاتلت المرأة فإنها تقتل

حينئذ وأما الشيخ الفاني والراهب والأعمى والزمن

فإنهم لا يقتلون أيضا إلا أن يكون لهم رأي وتدبير

يخاف منه النكاية في المسلمين أو يحاربوا فيجوز

حينئذ قتلهم

كمل نصف شرح مشكل الصحيحين بحمد الله وعونه وتوفيقه

وتأييده يوم الأحد لعشر بقين من شهر رمضان المعظم

سنة تسع وعشرين وستمائة

صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وأزواجه وذريته أجمعين

عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون وسلم تسليما

بلغ مقابلة على الأصل الذي قرئ على الشيخ الإمام العالم سيد العلماء والحفاظ

جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي المصنف تاريخ

السبت والعشرين من صفر سنة [illegible] وستمائة بالحرم الشريف

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

نموذج لقيد مقابلة على غاشية شرح مشكل الصحيحين لابن الجوزي

في مواضعها وأما قول ذي الرمة ... إذا ما ارتمت لحياه يا ابن قطعت نطاف المراح الضامنات القوارح ... هذا آخر كتاب التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية وقد كمل بحمد الله تعالى هذا الكتاب الكبير المتين والبحر الغزير الغنا والبدر الكبير السنا مؤلفه إمام أهل اللغة والمعنى ومن غاص في بحار العلوم فاستخرج ... وباهر ... الألفاظ والكنى

أبي الفضائل الحسن بن محمد الصغاني أحله من أعلى الفردوس على غرف وأنعم عليه بالزيادة

بعد الحسنى على يد الفقير الأسير المذنب والعبد المقر بالقصور ... أبي الطاهر

محمد بن يعقوب الفيروزابادي ... وأصلا ... مبرزا ومعنى ووقاه الله من

... الدنيا ... والأكساد ...

يوم الخميس بعد مضي ... رجب الحرام ...

وسنة ... أربع وخمسين وسبعمائة ...

... بدار السلام بغداد دار المقاصد ...

... الحوادث عنها ... وأنال أهلها ... السعادات

... ولي ... والفضل والحسن

وهو حسبي ونعم الحسيب

قال الصغاني مؤلف هذا الكتاب قد يسر الله تعالى الفراغ من تأليفه ضحوة يوم الجمعة ... بيت الله الحرام العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وستمائة

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله أجمعين

بلغ العراض بالأصل

المصحح المضبوط بخط

المصنف جزاه الله تعالى

بحسن جزاء وآواه أعالي

جنانه ... عبد الله

وصحح لنفسه وأصلحه

أحقر العبيد أبو طاهر

الفيروزابادي كاتب

الأصل صفح الله تعالى

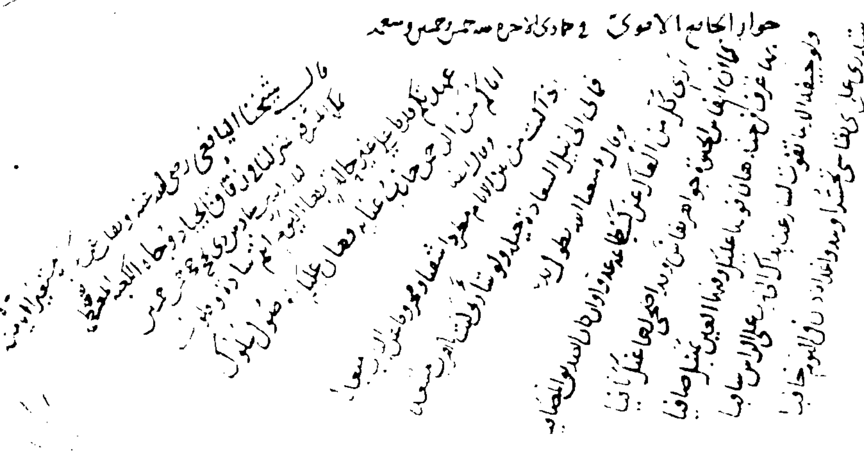
عن شهوات جنانه وطمس

على شهوات لسانه وذلك

بمدينة السلام بغداد

نقل الأسطر ... عن نسخة حواشيها بخط الصغاني رحمه الله ... بمدينة دمشق في المدرسة ... الفرج ...

... الأولى ... سنة ... وستين



أنموذج لبلاغ بمعارضة كتاب

السادس والعشرين من صفر سنة تسع وستين وستمائة بالحرم الشريف ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم » .

أما « المعارضة » فيذكر ابن أبي أصيبعة أن الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدِّخْوار كان لا يقرئ أحدًا إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب الذي يقرأه ذلك التلميذ ، ينظر فيها ويقابل به ، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه . وأضاف أن نسخ الشيخ مهذب الدين الدِّخْوار التي تقرأ عليه في غاية الصحة وكان أكثرها بخطه .

وكان أبدًا لا يفارقه إلى جانبه ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ، ومن كتب اللغة كتاب « الصحاح » للجوهري ، و« المجمل » لابن فارس ، و« كتاب النبات » لأبي حنيفة الدينوري ، فكان إذا جاءت في الدرس كلمة لغة يحتاج إلى كشفها وتحقيقها نظرها في تلك الكتب[(١)] .

ومن نماذج المعارضة ما ورد بحاشية الجزء الثاني من كتاب « التكملة والذيل والصِّلة » للحسن بن محمد الصَّغاني نسخة مكتبة كوبريلي باستانبول رقم ١٥٢٢ وهي نسخة كتبها بخطه محمد بن يعقوب الفيروزأبادي في بغداد سنة ٧٥٤هـ : « بلغ العراض بالأصل المصحح المضبوط بخط المصنف جزاه الله تعالى بحسن جزاءه وآواه أعالي جناته في ضنائن عبدائه ، وصححه لنفسه وأصلحه أحقر العبيد أبو طاهر الفيروزأبادي كاتب الأصل ، صفح الله تعالى عن شهوات جنانه ولمس على شهوات لسانه ، وذلك بمدينة السلام بغداد » .

قيود المطالعة

نجد هذه القيود عادة على ظهر الكتاب (صفحة عنوانه) ونادرًا ما ترد في آخره ، وهي توضح أن أحد العلماء قد طالع هذه النسخة ونظر فيها

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢٤٣:٢.

وانتقى من مادتها لأحد كتبه ، ومن شأن هذه القيود إعلاء قيمة النسخة ، ومن ذلك ما ورد على صفحة عنوان كتاب « المغرب في حلى المغرب » ، الذي ألّفه بالتوارث بنو سعيد المغربي ، وآخرهم علي بن سعيد، نسخة مكتبة معهد بلصفورة بسوهاج (الجزء السادس) ، ونسخة دار الكتب المصرية (الجزء الرابع) .

« طالعه وانتقى منه مالكه خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ، عفا الله عنه » [طالعه وعلق منه ما اختاره] .

« طالعه وترحم على مصنفه خليل بن عمر بن المحتاج الأسعردي عفا الله عنه » .

« استفاد منه داعيًا لمالكه أحمد بن علي المقريزي سنة ٨٠٣» .

« استفاد منه داعيا لمالكه إبراهيم بن دقماق عفا الله عنه ورحمه آمين » [طالعه وعلق منه ما اختاره ...] .

« طالعه وما قبله فتح الله سنة ٨١٠» .

« طالعه أحمد بن عبد الله بن الحسين بن الأوحدي سنة ٨٠٣» .

وما سجله ابن مكتوم النحوي على غلاف كتاب « التعليقات والنوادر » لأبي علي الهجري : « طالعه ونقل منه فوائد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم بن أحمد القيسي » .

وما جاء على غلاف الجزء الثاني عشر من « كتاب الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني نسخة مكتبة فيض الله باستانبول رقم ١٥٦١. « طالع الفقير في هذا المجلد وانتقى منه لشرح شواهد « مغني اللبيب »، وشرح شواهد الرضي على الكافية الحاجبية . كتبه عبد القادر البغدادي غرة سنة ١٠٧٣» .

وعلى غاشية نسخة كتاب « الوافي بالوفيات » السابق الإشارة إليه :

السفر الرابع

من كتاب المغرب

في حلى المغرب

الذي صنفه بالموارثة في مائة وخمس عشرة سنة

ستة وهم

ابو محمد الحجاري عبد الملك بن سعيد

احمد بن عبد الملك محمد بن عبد الملك

موسى بن محمد علي بن موسى

كتبه بخطه للخزانة العلية الجليلة

الصاحبية الكمالية عمرها الله ببقاء

صدر الصدور الشامية رئيس الحضرة الحنفية

سيد الوزراء والاصحاب الصاحب الكبير

كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد بن

هبة الله بن ابي جرادة العقيلي احيا الله

بطول حياته دولة الفضائل وابقى

نجح الوسائل

نماذج لمطالعات وإفادات على نسخة كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

« الحمد لله أنهاه مطالعة وانتقاء العبد محمد بن منصور الحسيني الحلبي بالقاهرة سنة ٨٩٥، أحسن الله ختامها في خير » و « طالعه إبراهيم بن دقماق عفا الله عنه » و« طالعه إبراهيم بن دقماق ثانيًا واستفاد منه » .

وعلى غلاف نسخة « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب المحفوظة في مكتبة كوبربلي باستانبول رقم ١١١٥: « ملكه وطالعه وأسفر من فوائد إبراهيم بن مفلح الحنبلي » - « استوعبه وانتقى ما فيه من المفسرين محمد بن علي بن أحمد الداودي » - « انتقى منه فوائده عبد الوهاب » .

وعلى غلاف الجزء الخامس من نسخة « معجم البلدان » لياقوت الحموي ، المحفوظة في مكتبة كوبريلي باستانبول برقم ١١٦١- ١١٦٥ : « فرغ منه وما قبله مطالعًا ومنتقيًا خليل بن أيبك الصفدي » .

أما المقريزي فكان يسجل على الكتب التي طالعها واستفاد منها وهي كثيرة جدًّا العبارة التالية : « استفاد منه داعيًا له أحمد بن علي المقريزي » .

وكان العلماء يعتمدون على نوع العبارات التقليدية التي تلي ذكر اسم مصنف أو أديب أو عالم لتحديد تاريخ النسخة أو عمر المصنف ، ففي هذه العبارات إشارات واضحة إلى أن الناسخ كان ينسخ في زمن كان المصنف فيه قد مات أو ما زال على قيد الحياة . فقد استدل تاج الدين السبكي ، صاحب « طبقات الشافعية الكبرى » ، على أن أبا بكر الفارسي صاحب كتاب « عيون المسائل » توفي بعد ابن سُرَيْج ، وأنه كان موجودًا سنة ٣٣٩، بأنْ رأى أصلًا أصيلًا من كتابه موقوفًا بخزانة المدرسة الباذرائية بدمشق . ومما دله على أنه كتب في حياته قول كاتبه فيما دعا به لمصنفه : « مدَّ الله في عمره وأدام عزه » ، وذكر في آخر الجزء الأول منه أنه فرغ منه ليلة الأحد لليلة مضت من ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة بسمرقند ، في ولاية الأمير أبي محمد نوح بن نصر الساماني مولى أمير المؤمنين ، ثم ذكر في آخر الكتاب أنه فرغ منه في شوال سنة إحدى

وأربعين وثلاثمائة ، وأضاف أنه استكتب منه نسخة ليحيا هذا الكتاب ، لأني لم أجد به إلا هذه النسخة[1] .

الإِشارة إلى المراجع والاقتباسات

إن الطريقة الحديثة التي يتبعها المؤلفون من ذكر المراجع التي يستخدمونها في مصنفاتهم وذكر المجلد والصفحة ، تقوم على افتراض وجود نسخ مماثلة من الكتاب المشار إليه ؛ ولا شك أن الطباعة ووجود المكتبات العامة قد أعانت على ذلك . ولكن افتراضًا من هذا النوع محال في عصر المخطوطات .

ففي هذا الوقت كان المؤلفون عند إشارتهم إلى المراجع التي يأخذون عنها ينقلون النص كاملًا أو بشكل مختصر ، إذ لم تكن لديهم وسيلة أخرى مرضية لإِطلاع القارئ على المصدر الذي أخذوا عنه .

ولم يكن بالأمر السهل وصف حجم الكتاب الذي ينقلون عنه أو أجزاء منه ، فكانوا يقولون عن مؤلف ما : إنه كتاب صغير أو كتاب كبير مدللين بعدد أوراق الكتاب وأجزائه ، ولمزيد من الدقة كان بعض العلماء يذكرون أيضًا حجم الورقة [2] . فابن النديم عندما يذكر أن شعر أحد الشعراء يملأ كيت وكيت من الأوراق ، كان يذكر بكل وضوح أن الورق الذي يشير إليه هو السليماني الذي تسع الورقة منه عشرين سطرًا[3] . فقد كانت مسطرة كل ورقة تختلف عن الأخرى عرضًا وطولًا ، وأهم هذه الأنواع : الطلحي والنوحي والطاهري والجيهاني والمنصوري والفرعوني[4] ؛ يقول ابن

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٣- ١٩٧٣، ٢:١٨٥.
(٢) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ١٠٢- ١٠٣.
(٣) ابن النديم : الفهرست ١٨١.
(٤) نفسه ٢٢.

أبي أصيبعة في ترجمة الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا على لسان أحد تلاميذه : « وأمرني الشيخ بإحضار البياض [يعني الورق] ، وقطع أجزاء منه ، فشددت خمسة أجزاء كل واحد منها عشرة أوراق بالربع الفرعوني »(١) .

وإذا أخذنا على سبيل المثال المؤلفات التاريخية سنجدها تنقسم إلى قسمين رئيسين : مصادر بالمعنى الدقيق يصف فيها كاتبها أحداثًا شهدها بنفسه ، ومؤلفات مجمعة لا تقرر الأحداث مباشرة وإنما تعتمد على مؤلفين أقدم . وهذا النوع هو الأكثر عددًا وتوجد منه في المكتبات أعدادٌ من المخطوطات أكبر بكثير من المصادر الأصلية . وهذه الفئة من المؤلفات هي التي وضعت الخطوط الأساسية للحوليات التاريخية .

وإذا كان نقل كلام السلف في الأدب يعد انتحالًا ، مع أن هذه العصور السابقة لم تعرف حقوق التأليف كما نعرفها نحن الآن حيث ظهرت مؤلفات مثل : « الإبانة عن سرقات المتنبي » لأبي سعد العميدي وغيرها ، فإن الأعمال التاريخية لا تبنى على التخيل بل على الوثائق ، ومن ثم فلا مفر أمامها - حتى يومنا هذا - من أن تعتمد إلى حد كبير على المؤلفين الذين كانوا من سجل هذه الأحداث .

لذلك فقد كان مؤلفو الكتب التاريخية شديدي الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها ، وكانوا يشعرون بأنهم قاموا بما عليهم ، لأن العُهْدَة في صحة الخبر أو كذبه تقع في هذه الحالة على كاهل صاحب المصدر ، يقول مؤرخ مصر تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م موضحًا منهجه في استخدام المصادر في مقدمة كتابه « الخطط » : « ... فإني سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهي : النقل من الكتب المصنفة في العلوم ، والرواية عمن أدركت من مشيخة العلم وجُلَّة

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٢ :٨.

الناس ، والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم فإني أعزو كل نقل إلى الكتاب الذي نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته ... وأما الرواية عمن أدركت من المشايخ والجُلَّة ، فإني في الأكثر والغالب أُصَرِّح باسم من حدثني إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقَلَّ ما يتَّفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون ولله الحمد غير متَّهم ولا ظنين »[1] .

ويجب أن تقوم هذه المؤلفات على ضوء المعلومات التي تضمها ، وما إذا كانت قد وصلت إلينا من مصادرها الأصلية مباشرة ، أم أن المصادر الأصلية قد فقدت ولم يبق لنا منها إلا ما سجلته المؤلفات المتأخرة . ورغم أن الكثير من المصادر الأصلية قد فقد اليوم لسوء الحظ إلا أننا يمكننا استرجاعه إلى حد ما عن طريق المؤلفات التاريخية المتأخرة التي اقتبست منها بتوسُّع فقدَّمت بذلك خدمة جليلة للأجيال التالية .

وإذا أخذنا من العصور الإسلامية الطويلة عصرًا ومثلنا له مثل العصر الفاطمي ، سنجد أن ما وصل إلينا من المصادر التي دُوِّنت في هذا العصر لا يتعدى الخمسة كتب ، ولكن من حسن الحظ فقد ظلت جميع المؤلفات التي كتبت في العصر الفاطمي أو بعده بقليل تقريبًا موجودة حتى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وكان في أيدي العديد من مؤرخي هذا القرن نُسخًا منها (وقد تكون نسخة واحدة) ، ونقلوا منها نصوصًا مطولة ، فأصبحت بذلك مصادر من الدرجة الأولى لدراسة هذا العصر . فنحن لا نعرف تاريخ ابن المأمون أو تاريخ ابن الطُّوَيْر أو تاريخ ابن أبي طي أو متجددات القاضي الفاضل إلا من خلال النقول التي نقلها عنهم مؤرخون من أمثال : أبي شامة المقدسي وابن الفرات والنويري والقلقشندي والمقريزي وأبو المحاسن بن تغري بردي .

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٨٥٣؛ ١:٤.

وفي الحالات التي أمكننا فيها تحقيق روايات هؤلاء المؤرخين في أصولها تبين لنا أنهم أهلًا للثقة بصورة تجعلنا نعتمد عليهم اعتمادًا كاملًا ، وأن نقوم من خلالهم بإعادة بناء الكثير من المصادر التاريخية التي فقدت اليوم .

وقد قمت شخصيًا بهذا العمل حيث أعدت بناء كل من « أخبار مصر » للمسبحي ، و« أخبار مصر » لابن المأمون البطائحي ، و« نزهة المقلتين » لابن الطوير ، وقسم من « الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة » لابن عبد الظاهر ، استكملت به المُسوَّدَة الأولى للكتاب التي وصلت إلينا[1] .

توضح لنا النماذج التي أوردناها فيما سبق - رغم أنها لا تعبر بالضرورة عن شكل عام للبحث عند العلماء المسلمين - المنهج أو الطرق التي كان يتبعها هؤلاء العلماء في خلال بحثهم أو اطلاعهم على مؤلفات سابقيهم ، وكيفية استفادتهم من مواد هذه الكتب في بناء مؤلفاتهم الخاصة . والمخطوطات التي وصلت إلينا من مختلف فترات التاريخ الإسلامي والتي أوردت نماذج لها تقف شاهدة على هذا المنهج العلمي الدقيق الذي اتبعه هؤلاء العلماء في تدوين كتبهم .

* * *

(١) انظر ، أيمن فؤاد سيد : « إعادة بناء المصادر العربية الضائعة وأهميته لدراسة التاريخ الإسلامي المبكر والوسيط » ، في كتاب أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب ، القاهرة - منشورات اتحاد المؤرخين العرب ١٩٩٩- ١٨٩- ٢٠٣.